مدى ارتباط الاستشراق بدراسات الأديان وأثره في الإنتاج الفكري عن الإسلام

د. محمد اوحيدة أحمد اوحيدة*

ملخص البحث

شهدت الدراسات المرتبطة بعلم مقارنة الأديان لدى المستشرقين تناميا كبيرا منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وهذه الحقبة تزامنت مع المد الاستعماري الغربي الذي كان يجتاح الدول المستعمَرة، ويتطلب فهما معمقا لشعوب هذه الدول، ولذلك فإن حقل دراسات الأديان سُخِّر لهذه الأغراض، وتم استعمال طرق وأساليب لا تقوم على أساس علمي في مجال دراسة الأديان، وهو ما يؤدي عادةً إلى اختزال الدين في مسائل وقضايا مادية وحياتية وسياسية، والنأي به عن الجانب الأساس وهو العقيدة، وهذا ما جرى عليه العمل غالبا في دراسات الأديان من قبل المؤسسات العلمية الغربية، وبخاصة الإسلام خدمة لمصالح الساسة وأصحاب النفوذ، وهو ما سنناقشه في هذا البحث.

يركز هذا البحث على الكتابات التي تناولت مسائل عملية مرتبطة بالاستشراق ودراسات الأديان؛ والتي من أبرزها المسائل المتعلقة بالمناهج الدراسية الإسلامية في المؤسسات التعليمية في الغرب؛ ومفهوم الإسلام لعدد من القضايا الحياتية مثل: قضية التكسب أو ما يعرف في الشريعة الإسلامية بمفاتيح الرزق، ونظرة الإسلام إلى العمل والمال، ومفهوم الاقتصاد في الإسلام، ونظام الأسرة في الإسلام، ومدى تعايش المسلمين وقبولهم لغير المسلمين، ويوضح هذا البحث كذلك نماذج من مواطن الخلل في المواقف والآراء القائمة على مجرد شبهات، وبيانِ الأخطاء المنهجية والموضوعية التي وقع فيها من تصدى لهذه القضايا، ومناقشة مثل هذه المزاعم مناقشة موضوعية، وذلك بالاعتماد على الأقوال والأفكار المعتدلة والمنصفة.

الكلمات المفتاحية: دراسات الأديان – الاستشراق – إنتاج فكري – مؤسسات علمية – مناهج دراسية.

* قسم العقيدة والفكر الإسلامي– كلية الدعوة وأصول الدين– الجامعة الأسمرية الإسلامية iwhida63@yahoo.co.uk

تمهيد:

أحمدك اللهم، واستعينك، واستهديك، وأستغفرك، وأتوب إليك، وأتوكل عليك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين. وبعد؛

لا نضيف جديدا إذا قلنا إن علم مقارنة الأديان من إبداعات علماء الإسلام، إذ لم يكن معروفاً قبل الإسلام بشكل منهجي، وبعد أن أصاب الإهمال هذا الحقل المعرفي؛ شأنه شأن المعارف والعلوم الأخرى في فترة الركود والجمود العلمي في التاريخ الإسلامي، والتي تزامنت مع حركة النهضة الشاملة في الغرب، عاد لهذا العلم أهميته على يد المستشرقين، ومن هنا وُجدِت العلاقة بين مقارنة الأديان والاستشراق، ولاستيعاب هذه العلاقة وربطها بواقعنا المعاصر، عقدت العزم بمشيئة الله على أن أدرس مسألة العلاقة بين علم مقارنة الأديان والاستشراق، وأثر هذه العلاقة في الإنتاج الفكري في الغرب فيما يتصل بالدراسات الإسلامية.

والاستشراق كما له صلة وثيقة بعلم مقارنة الأديان، فإن صلته بالسياسة وأحوالها أعمق، حيث تثبتت الشواهد إن الاستشراق له الدور الأبرز في إفساح المجال لتوجهات ورؤى الساسة لتسخيره للأغراض المرتبطة بمصالحهم، ولذلك فإن دراسات الاستشراق تلقى المؤازرة والدعم من أصحاب النفوذ السياسي، ودوائر صنع القرار الغربي، رغم افتقارها غالبا للمعايير العلمية المتعارف عليها، ولذا فإن تزايد الاهتمام بالدراسات الإسلامية ليس بمستغرب لدى الدول الغربية، بُغْية الاستفادة من جهود المستشرقين في تحقيق المطامع والمصالح المرجوة، والتي عادت للواجهة من جديد وبزخم شديد بداية من العقد الثاني من هذا القرن، في ظل ما تشهده عددا من الدول الإسلامية من تغيرات سياسية وثقافية واجتماعية.

أولا: إشكالية البحث:

الاستشراق ازدهر ازدهارًا كبيرًا ضمن المناخ الاستعماري حين تم توظيفه للغايات الاستعمارية، ولإبعاد العقل الأوروبي ليحول بينه وبين فهم الإسلام على حقيقته، لذلك ظهرت الكتابات باللغات الأوروبية لمخاطبة أبنائها، والمعروف أن القضايا الفكرية والثقافية بشكل عام تمثل رافداً طبيعياً للثقافة التي ينشأ ويتربى فيها الكاتب؛ فالباحث لا يمكنه أن ينفصل عن الثقافة التي ينشأ فيها، لذلك لا يستطيع أي باحث أن يتناول موضوعا دون أن يخضع للخلفية الفكرية والمناخ العلمي المحيط به، والمفروض عليه مسبقاً بسبب نشأته الثقافية، وبيئته الاجتماعية التي يصبح الإفلات منها أمرا عسيرا.

وتبعاً لذلك نجد من الصعوبة الفصل بين الاستشراق ودراسات الأديان، وبالعودة إلى جذور الاستشراق نجد أن بداياته دينية محضة، فكانت الترجمات الأوروبية مبكرة للقرآن الكريم والسيرة النبوية، ثم شهدت الدراسات

الإسلامية في المؤسسات والجامعات والمراكز العلمية تطوراكبيرا؛ وخصوصا مع بدايات الحقبة الاستعمارية، لذلك فإن إشكالية البحث تتلخص في أن الاستشراق يحمل أهدافاً فكريةً تتمثل في النظرة الدونية للأديان غير النصرانية، وذلك لتبرير فرضِ قيم الثقافة الغربية، تحت شعار الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحريات، وأمثالها من الشعارات، والتي من خلالها يحقق أهدافه القريبة والبعيدة، ومن هنا تبرز الإشكالية التي سنعالجها والتي نوجزها في التساؤل الآتي:

ما مدى ارتباط الاستشراق بعلم مقارنة الأديان وتأثيره فيما يقدمه الفكر الغربي من نتاج معرفي متصل بالإسلام؟

ثانيا: أهمية البحث:

إن دراسات الأديان عند الغرب تأثرت إلى حدٍ كبير بالظروف التاريخية التي مرت بها الشعوب الغربية، وإن الاستشراق الذي يمثل جذور دراسات الأديان عموما عند الغرب، والدراسات الإسلامية خاصة؛ هو الذي يُغذي الصراع الفكري، ويشكل المناخ الملائم للهيمنة والاستلاب، ويمد مؤسسات الغرب بالموارد الفكرية التي من شأنها السيطرة على المجتمعات الإسلامية.

وإن هذه الدراسات تدور غالبا حول دراسة وعرض مسائل وقضايا مادية في مجتمع الدراسة، وبالمقابل لا تُعطى العقيدة التي هي جوهر الدين الأهمية التي تستحقها، فالفرق في المنهجية بين الدراسات النصرانية، ودراسات الأديان غير النصرانية موجودٌ بعمق في حقل الدراسات الدينية في المؤسسات العلمية والجامعات الغربية عموما، ومن هنا يَلزم معالجة هذا الوضع عن طريق الأبحاث والدراسات من طرف الباحثين المسلمين لدراسة واقع وطرق وأساليب الدراسات الإسلامية في الغرب، والوقوف على مدى تأثيرها في منهجية التفكير الغربي في حقل الدراسات الإسلامية، وهذا ما سنحاول إبرازه في هذا البحث المتواضع.

ثالثا: منهج البحث:

المنهج الغالب في هذا البحث هو المنهج الوصفي، مع استعمال المنهج التاريخي حين نستعرض أحداثا أو مواقف تاريخية، وأخيرا المنهج التحليلي في القضايا والمسائل التي يتطلب سياق البحث مناقشتها وتحليلها.

رابعا: خطة البحث:

يضم البحث تمهيدا ومبحثين وخاتمة؛ المبحث الأول: الاستشراق ومقارنة الأديان، وسوف نقسمه إلى مطلبين؛ نتناول في المطلب الأول الاهتمام بالأديان غير النصرانية لدى علماء الغرب، وفي المطلب الثاني ندرس رؤى المستشرقين حول دراسة الإسلام، أما المبحث الثاني: واقع الدراسات الإسلامية في المؤسسات العلمية الغربية،

فينقسم إلى مطلبين؛ ندرس في المطلب الأول القيم الإسلامية وأثرها في قبول الآخر، والمطلب الثاني سوف نخصصه لنماذج عملية للدراسات الإسلامية في المؤسسات العلمية الغربية، وأخيرا الخاتمة.

ونسأل الله سبحانه وتعالى العون والتوفيق والبركة في أقوالنا وأفعالنا.

المبحث الأول: الاستشراق ومقارنة الأديان

سنتطرق في هذا المبحث إلى مسائل يدخل بعضها في المفهوم التقليدي للاستشراق، بينما يناقش الجانب الآخر منها المفهوم العلمي لمقارنة الأديان، وعلاقته بالاستشراق بصورة فاعلة وعملية، ومناقشة الاتجاهات المختلفة للمستشرقين مناقشة موضوعية، مع توضيح موقف الإسلام منها، وسوف نقسم هذا المبحث إلى مطلبين؛ نتناول في المطلب الأول الاهتمام بالأديان غير النصرانية لدى علماء الغرب، وفي المطلب الثاني ندرس رؤى المستشرقين حول الإسلام.

المطلب الأول: الاهتمام بالأديان غير النصرانية لدى علماء الغرب

إن الاهتمام بالأديان غير النصرانية لدى الغرب أسهم في الدراسات المعمقة للأديان عموما، مع التركيز من الناحية العملية على إنشاء أقسام وشُعب لدراسات الأديان، والاستقلال عن أقسام الفلسفة في الكثير من الجامعات والمؤسسات العلمية ومراكز البحوث الغربية، وبذلك أصبح الاختصاص في حقل الدراسات الإسلامية والأديان الشرقية واسعاً ومُنتشراً، وتبعا لذلك جاءت الإسهامات العلمية التي ابتعدت عن المناهج والمؤسسات التقليدية لدراسة الأديان.

ومع اختلاف وتباين الاتجاهات والآراء حول تاريخ الدين، وتعريف الدين[1]، إلا أن هناك اتجاها معاصرا لدى الغرب نحو استقلال حقل الدراسات الدينية، وفي الوقت ذاته أثبت التطبيق العملي صعوبة الالتزام باستقلالية حقيقية بشكل شامل، وعلى الأخص فيما يتعلق بالعقيدة، فلم تكن أقسام الدراسات الدينية تلتزم دائماً بمنهجية موضوعية في دراسات الأديان، فهي تستخدم منهجية أكثر صرامة عند دراسة النصرانية واليهودية، وأقل اهتماما عند دراسة الأديان الأخرى، فالنصرانية كديانة رسمية وشعبية للأكثرية في الدول الغربية تدرس بعمق من جميع الجوانب، أما إذا تعلق الأمر بدراسة أي دين آخر، فلا تلقى دراسة العقيدة الاهتمام الذي من شأنه دراسة مسائل العقيدة بعمق[2].

---

[1] –من تعريفات الدين: "وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات" وللمزيد في تعريف الدين؛ ينظر: محمد عبد الله دراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم للنشر والتوزيع، ط5، القاهرة، 2006م، ص55 وما بعدها.

[2]– ينظر: عبدالقادر بخوش، إشكاليات منهجية في الدراسات الغربية لعلم مقارنة الأديان، بحث منشور في مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، الجزائر، عدد 7، رقم 1، ص 63، والبحث منشور كذلك على الرابط التالي: https://www.asip.cerist.dz/en/article/32290

وفي هذا السياق نشير إلى أن مفكري الإسلام من خلال علم مقارنة الأديان عندما يتناولون دراسة الأديان الأخرى، فإنهم يقدمونها بموضوعية وتجرد[1]، فعلم مقارنة الأديان لدى علماء الإسلام هو علم يقارن بين الأديان لاستخلاص أوجه الشبه والاختلاف بينها، ومعرفة الصحيحة منها والفاسدة إظهارًا لحقيقة الإسلام بأدلة يقينية[2]، أساسها الوحي الإلهي؛ كما يقول ابن حزم فيما يتصل بالأديان السماوية: "ما نزل القرآن والسنة عن النبي صلى الله عليه وسلم بتصديقه صدقنا به، وما نزل النص بتكذيبه أو ظهر كذبه كذبنا به"[3]، أما مفهوم هذا العلم عند الغرب فيختلف بناءً على الهدف الذي يسعى إليه كل باحث، طبقا لتوجهه العلمي أو الديني أو السياسي أو غيره.

ولقد شرع علماء الإسلام مبكرا في الاهتمام بعلم مقارنة الأديان والكتابة فيه، "فالكتابة في الأديان والملل والنحل ودراستها دراسة تاريخية وتحليلية لهو أمر من صميم الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي"[4]، وقد كتب على سبيل المثال أبو لحسن العامري، المتوفى سنة 381 هـ (مناقب الإسلام)، وكتب أبو منصور البغدادي، المتوفى سنة 429 هـ، (الملل والنحل)، وكتب أبو الريحان البيروني، المتوفى سنة 440 هـ، (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)، وكتب ابن حزم الأندلسي، المتوفى سنة 456 هـ، (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، وكتب أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، المتوفى سنة 548 هـ، (الملل والنحل)، وآخرون غيرهم، وبالمقابل فإن المسلمين كانوا يتقبلون النقد بصدر رحب، فقد انتقد اليهودي موسى بن ميمون، العلماء المسلمين وهو يعيش وسطهم ومن دون تعرّضه لأيّ إساءة، والخلفاء العباسيين مثل الرشيد والمأمون كانت مجالسهما تعج بعلماء من اليهود والنصارى[5].

ولقد قدَّم القرآن الكريم الدَّرْس المنهجي الموضوعي الأول في مجال مقارنة الأديان، كما حفل بالحديث المفَصَّل، المستوعب عن الأديان والعقائد والملل والنحل والمذاهب المختلفة المتنوعة، وعرض مقالاتهم بدقة واستقصاء، ثم ناقشها وبيّن وجوه الزَّلَل والبطلان والزيف فيها، وقارن بينها وبين الدين الصحيح الذي أرسل الله به رسله عليهم السلام[6]، بينما علم مقارنة الأديان كغيره من عدد من العلوم الإنسانية في الغرب من العلوم التي

(1) –أحمد شلبي، مقارنة الأديان، (اليهودية)، مكتبة النهضة المصرية، ط8، القاهرة، 1988م، ص31.

(2) –ينظر:محمد عزت الطهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان: حقائق ووثائق، دار القلم، ط1، دمشق، 1993م، ص10.

(3) –ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح. محمد نصر وآخر، دار الجيل، بيروت، ج1، ص319.

(4) –محمد عبدالله الشرقاوي، مقارنة الأديان: بحوث ودراسات، دار الجيل، ط2، بيروت، 1990م، ص5.

(5) –ينظر: حسن الباش، علم مقارنة الأديان:أصوله ومناهجه ومساهمة علماء المسلمين والغرب في تأصيله، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق،2011م، ص31.

(6) –ينظر: المرجع نفسه، ص21.

تعاني من فقد أو نقص الموضوعية، مما نتج عنه مغالطات كبيرة في دراسات الأديان عموما، والدراسات الإسلامية خاصةً.

وإذا كان المسلمون في عصور الضعف قد أهملوا علم مقارنة الأديان الذي هو أداة من أدوات فهم الآخر، فإن موقف النصارى من هذا العلم كان مختلفًا تمامًا، فقد اهتموا بهذا العلم اهتماما كبيرا[1]، وإن كان هذا الاهتمام يرجع إلى بدايات الفتوحات الإسلامية؛ لأنه بعد الفتوحات الإسلامية أصبحت وسائل التواصل بين المسلمين والمسيحيين في البلدان التي فتحها المسلمون ميسرة، وحدثت لقاءات وحوارات مما عرَّف المسيحيين بمقارنة الأديان، وأثبتت لهم قيمة هذا العلم فحرصوا على تعلمه محاولين الانتفاع به، كما ظهر الاهتمام بهذا العلم بشكل أكثر تركيزا في أوائل القرن العشرين بظهور دراسات وأبحاث ومؤلفات متعددة عن الأديان، وتأسيس أقسام علمية لهذا العلم في المعاهد والجامعات ومراكز البحوث العلمية، وتأليف الكتب والموسوعات، وعقد المؤتمرات والندوات، وإنشاء الجمعيات والمنظمات، وغيرها من البرامج والأنشطة.

ومع أن جيلا جديدا من علماء الغرب يبدون قدراً متزايداً من النقد الذاتي، إلا أن الأهداف السياسية يظل لها المساحة الأكبر في الدراسات الإسلامية؛ وتتمثلُ الخلفيات التاريخية التي تحمل إشكاليات سلبية في مجال الدراسات الإسلامية في مجموعة عوامل، منها؛ الجهل بعقيدة ومضمون الإيمان الكامن في الأديان غير النصرانية؛ وخاصةً الإسلام، وقراءة الأديان الأخرى من وجهة نظرٍ محدودة قائمة على أغراض معينة، والتحيز الاستعماري للدول التي ينتمون لها، والانطلاق من عقلية امتلاك المعرفة الكاملة، وأن العقلية غير الغربية ليست لها قيمة علمية، وهو المنهج السائد في الغرب فيما يعرف بالمنهج الفيلولوجي الذي يقوم على إنكار ما للمفكر أو الفيلسوف غير الأوروبي من أصالة وابتكار وإبداع، ويحرص هذا المنهج على طمس كل جوانب الإبداع في كل الحضارات، ويرد كل تقدم معرفي إلى الحضارة الأوربية[2].

ويناقش د. محمد عابد الجابري هذا التوجه بقوله: إن النظرة التجزيئية التي يصدرها ويعتمدها هذا المنهج تمارس عدوانا خطيرا على النصوص، وبالتالي على فكر صاحب النص، وذلك عندما تفتنه وتقتل الحياة في سياقه، وتنتزع منه ما تريد[3]. ورغم المتغيرات الكثيرة التي حدثت في ميدان الدراسات الإسلامية، فإن أكثر القضايا

[1] -ينظر: أحمد شلبي، المرجع السابق، ص29.

[2] -المنهج الفيلولوجي: هو منهج يقوم على نظرة تجزيئية، تجتهد في رد كل فكرة إلى أصل سابق عليها، والمستشرق الذي ينتهج هذا المنهج في دراسته للفلسفة الإسلامية، لا يعمل على رد نظرياتها وأفكار فلاسفتها إلى أصول تقع داخلها، أي أصول إسلامية، بل هو يجتهد كل الاجتهاد إلى ردها إلى الأصول اليونانية، أي الأوروبية. ينظر: إبراهيم صقر، الاستشراق والفلسفة الإسلامية بين التجديد والتبديد، المكتبة المصرية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2004م، ص78.

[3] -ينظر: محمد عابد الجابري، مسألة الهوية والعروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997م، ص345.

المرتبطة بوضع الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية لها علاقة بواحدة أو أكثر من العوامل التي ذكرناها في الفقرة السابقة، ويحتاج الأمر إلى بذل جهود مضاعفة من الباحثين المسلمين ليحرر هذا المجال من القيود الفكرية المبنية غالبا على خلفية تاريخية عرفتها دراسات الأديان؛ من أجل تقديم أفكار علمية رصينة للتخلص من التشويه الفكري في الدراسات الإسلامية.

المطلب الثاني: رؤى المستشرقين حول دراسة الإسلام

إن الجانب العقدي يمثل جوهر الدين بالنسبة للإسلام، وهذا ما لا نجده غالبا في دراسات الأديان بالنسبة لغير المسلمين، وما ينبغي البداية به عند تناولنا لرؤية المستشرقين حول دراسة الإسلام هو التأثير الإعلامي الكبير للفكر الاستشراقي، ذلك إن الاستشراق يرتبط بوسائل الإعلام، وإن أغلب آراء المستشرقين لم تعرف لدى العامة، لولا حرص وسائل الإعلام الغربية على نشرها، كذلك فإن عديد المستشرقين يظهرون في وسائل الإعلام بغرض أداء الرسالة المكلفين بها، وإن كان هذا الجانب يختلف عن الاستشراق الأكاديمي، لكنه يلتقي معه في الاهتمام بالشأن الإسلامي وقضاياه المختلفة، ولا شك أنّ ثمة تأثيراً متبادلاً بين الإعلام والاستشراق؛ حيث يرجع الإعلاميون إلى الدراسات الاستشراقية لتزويدهم بالمعلومات والبيانات التي تبنى عليها المواقف المختلفة[1].

والمشكلةُ الأعمق في دراسة الإسلام لدى الغرب، تبرز في ترجمة القرآن الكريم، حيث نجد أن عديد الترجمات مثيرة للتساؤل بشكلٍ واضح، ذلك لأنه على سبيل المثال من الصعوبة اختيار مقتطفاتٍ من القرآن الكريم ومحاولة ترجمتها لاستنباط حكم من نص معين من غير استيعاب كامل لسياق النص، كما هو الحال مع أي نص بشري، وذلك بسبب مكانة القرآن الكريم وقدسيته؛ الأمر الذي يجعل الفهم متعسراً، ويتركز اهتمام فئة من المستشرقين في دراستهم للإسلام على دراسة القرآن الكريم وكل ما يتعلق به بقصد الطعن فيه والتشكيك في مصداقيته[2]، ويلاحظ أن ميدان التفسير من المجالات التي كتب فيها المستشرقون كتابات نقدية كثيرة، وتركزت تلك الدراسات على الطعن في كتب ومناهج التفسير، مطالبين بتحديث وتطوير التفسير، زاعمين اكتشاف مناهج جديدة في تفسير القرآن الكريم لم يصل إليها العلماء المسلمين، مع الدعوة لقراءة جديدة للقرآن الكريم، وتأويلات حديثة لكتاب الله تتوافق مع مقتضيات العصر، ومسايرة المناهج الحديثة للعلوم الإنسانية والاجتماعية؛ وقد جاوزت هذه الفئة من المستشرقين في طعنهم في كتاب الله تعالى، ونقدهم لمناهج علماء الإسلام في تفسير القرآن كل حدود المنطق ومتطلبات البحث العلمي الرصين، وهذا ما يتجلى في موقف المستشرقين غير المنصفين من القرآن الكريم،

[1] –ينظر: المحجوب بن سعيد، الإسلام والإعلام فوبيا، دار الفكر، ط1، دمشق، 2010م، ص78.

[2] –للمزيد حول دراسات المستشرقين للقرآن الكريم؛ ينظر: التهامي نقرة، القرآن والمستشرقون، بحث منشور في كتاب مناهج المستشرقين، المنظمة العربية للثقافة والفنون، الرياض، 1985م. وكذلك: محمد حسين الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1983م. وكذلك: عمر لطفي العالم، المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، 1991م.

حيث تنوعت الاهتمامات الاستشراقية بالدراسات الإسلامية عامة، وبالدراسات القرآنية والتفسير بخاصة، وفقا لما يريدون الوصول إليه من غايات، وبمنهج يغلب عليه السطحية وعدم الاعتداد بأصول البحث العلمي، ويظهر فيه أثر الخلفية العدائية للإسلام، حيث يصور المستشرقون غير المنصفين الآراء الشاذة بأنها المعبر الحقيقي عن الإسلام، ويركزون على الآراء والأقوال الضعيفة في المذاهب الإسلامية، ويصورون الخلافات في التفسير بين المدارس والمذاهب خللاً في الشريعة الإسلامية، بل يعدونه تناقضاً في القرآن الكريم[1].

ومع ذلك فإن من المستشرقين من يعمل على التحرر من مثل هذه الأساليب، وينتجون إنتاجاً علمياً رصيناً، فهناك جوانب إيجابية لعدد من المستشرقين لا يمكن إنكارها أو تجاهلها، فمن هذه الأصوات المنصفة المستشرق (بالمر) الذي يقول: "إن ترجمة القرآن كما ينبغي هي مهمة عسيرة جدا، ومحاكاة القافية والإيقاع من شأنه أن يعطي القارئ الإنجليزي رنينا مصطنعا غير موجود في الأصل العربي"[2]، وكذلك (روم لاندو) في كتابه (الإسلام والعرب)، حيث يقول: "يتعين على المرء أن لا يتلو القرآن كما يتلو كتاب النصارى المقدس، مبتدئا بالفصل الأول ومتوقعا أن يطالع دفقا موصولا من التاريخ والوحي، ولو اخترنا من القرآن في فطنة وحكمة، بعض قصار السور، إذن لجعلنا قراءته حافلة بالمعنى والمتعة"[3]،وعلاوة على ذلك فنجد عديد المستشرقين المنصفين يقر بالقيم الكبرى للإسلام متمثلة في أبرز قيمة إنسانية تترجم معاني الكرامة الإنسانية، وتحترم آدمية الإنسان، على اختلاف الدين أو العرق أو اللون؛ وهي قيمة التسامح: "إن مسامحة محمد – صلى الله عليه وسلم- كانت عظيمة إلى الغاية، وإنه لم يقم بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح علماء أوروبا المرتابون، أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب"[4]، غير إن الغرب المسيطر اليوم يرى أنه بما يملك مِنْ فكرٍ وأسلوبِ حياةٍ أولى بقيادة البشرية، وأنه يؤمن بأن نظام الحكم وأسلوب الحياة على النمط الغربي هي أفضل ما توصلت إليه البشرية، وهذا ما قال به الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون: "إن انعزالنا يخالف مثلنا ومعتقداتنا الدينية التي تدعو لنشر الفضيلة في العالم أجمع"[5]، وتحرص الدوائر الرسمية في الغرب من أجل نشر مبادئها وأفكارها على معرفة ما لدى الآخرين من حضارة وفكر وممارسات نابعة من دين أو عادات موروثة، وهو الدور الجوهري الذي يمارسه الاستشراق.

---

[1] -للمزيد حول هذا الموضوع؛ ينظر: محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1983م، ص 170-178.

[2] -عبدالرحمن بدوي، (نقلا عن موسوعة المستشرقين)، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية – دراسات لكبار المستشرقين-، القاهرة، 1965م، ص69.

[3] -روم لاندو، الإسلام والعرب، تر. منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1977م، ص36.

[4] -غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر. عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1956م، ص128.

[5] -ريتشارد نيكسون، الفرصة السانحة، تر أحمد صدقي مراد، دار الهلال، بلا تاريخ، القاهرة، ص23.

وعند تحليل رؤى المستشرقين نلاحظ أن هناك مؤثرات أصَّلت للخطاب الغربي المؤدلج والمسيس تجاه الإسلام في المجتمع بعامة، وفي المؤسسات التعليمية والأكاديمية بصفة أخص، ذلك أنه "ينبغي على المرء ألا يفترض أبدا أن بنية الاستشراق ليست سوى بنية من الأكاذيب أو الأساطير التي ستذهب أدراج الرياح...ذلك إن ما علينا أن نحاول أن ندركه هو القوة المتلاحمة للإنشاء الاستشراقي، وعلاقاته الوثيقة بالمؤسسات الاجتماعية والدينية، والسياسة المعززة، وقدرته المهيبة على البقاء"[1]، والمستشرقون عموما كان لهم دورا كبيرا في تأكيد هذه المفاهيم، من خلال كتاباتهم ودراساتهم للإسلام، وذلك لاكتشاف أسراره، ومحاولة الطعن في ثوابت الإسلام، والافتراء على كتابه ونبيه ورسالته من قبل المستشرقين غير المنصفين.

المبحث الثاني: واقع الدراسات الإسلامية في المؤسسات العلمية الغربية

هذا المبحث ينقسم إلى مطلبين؛ ندرس في المطلب الأول القيم الإسلامية وأثرها في قبول الآخر، والمطلب الثاني سوف نخصصه لنماذج عملية للدراسات الإسلامية في المؤسسات العلمية الغربية.

المطلب الأول: القيم الإسلامية، وأثرها في قبول الآخر

أرسى القرآن الكريم، والسنّة النبوية قيما إنسانية تعكس مدى قبول الآخر، وقدمت الشريعة الإسلامية نماذج إيجابية للتعامل والتعايش مع الآخر، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجد حرجا في أن يعيش معه من لا يتفق معه في الدين، ومن ثم نظر إلى من عاهدهم من اليهود في المدينة المنورة على أنهم من الناحية السياسية كالمسلمين الذين يعيشون معهم في دار واحدة فيما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات، وإن ظلوا من الناحية الشخصية على عقائدهم وعبادتهم وأحوالهم الخاصة[2]، ذلك أن الانفتاح على الآخر والحوار مع الآخر مما حث عليه القرآن الكريم، والسنة النبوية، ويعد أهم مباحث علم مقارنة الأديان.

ومن الثابت في التاريخ الإسلامي أنه من أُولَى التنظيمات السياسية في الإسلام، والتي تعزز مبدأ قبول الآخر عقد دستور المدينة؛ وهي المعاهدة التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وبين اليهود من سكان المدينة، واشتملت هذه المعاهدة على بنود دينية وسياسية واجتماعية منها؛ "أنه من تبع المسلمون من اليهود فإن له النصرة، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه، وأن من نصره فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه عدل ولا صرف..وأنه مهما اختلف فيه من شيء فإن مرده إلى الله، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم..وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين

---

[1] –إدوارد سعيد، الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء)، تر. كمال أبو سعيد، مؤسسة الأبحاث العربية، ط5، بيروت، 2001م، ص41.

[2] –ينظر: محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، القاهرة، 2005م، ص56.

ماداموا محاربين"[1]، ولذلك فإن هذه الصحيفة تعد "أول عقد اجتماعي وسياسي ديني حقيقي – وليس مفترضا أو متوهما – لا يكتفي الاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءًا من الرعيَّة والأمة والدولة، أي: جزءًا من الذات، له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكن فيه أي طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق"[2].

وفي هذا السياق أشير إلى مسألة تاريخية متصلة بقبول الآخر، وتعود إلى بدايات ظهور الإسلام في مكة المكرمة، ومنذ أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرًا من الصحابة بالهجرة إلى الحبشة طلباً للنصرة ودفعاً للظلم، وظهرت تلك البوادر أيضا في بيعة العقبة الثانية والتي تركزت بنودها على النصرة في الحرب والسلم، وتجلى ذلك في التنظيم السياسي للدولة الإسلامية بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة.

ومن أبرز القيم الإسلامية النظام الاجتماعي القائم على الأسرة، ففي دعوة الإسلام على سبيل المثال إلى تكوين الأسرة والحث على الترغيب في الزواج تبرز مقاصد الشريعة الإسلامية، وتظهر نتائج ذات مردود مباشر على الإنسان نفسيا واجتماعيا، والشعور بالسكينة والأمان، والعيش في مودة ورحمة، وكذلك ثمرات بعيدة المدى بالنسبة للفرد والمجتمع؛ من حيث تنشئة أبناء صالحين يعملون على خدمة الدين والوطن، فالزواج وبناء الأسرة نعمة من نعم الله، وآية من آياته امتن بها على عباده، واختارها لهم لتستقر بهم الحياة، ويؤدون واجباتهم الشرعية المكلفون بها في إطار المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، قال تعالى:﴿وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[3].

ونتناول في هذا الصدد أيضا المنهج الاقتصادي الإسلامي، والذي يقوم على نظام جوهره تقديره للإنسان نتيجة عمله وكسبه المشروع، وبما يحقق مصلحة الفرد والجماعة، وذلك بالحث على السعي في الأرض ابتغاء فضل الله، قال تعالى:﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾[4]، وكذلك الأمر بالعمل في ميادين العمل المتعددة، قال تعالى: ﴿وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5]، وإن الإنسان مستخلف من الله في الأرض لعمارتها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءاتكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَاب وَإِنَّهُ

---

(1) –ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تح مصطفى السقا وآخران، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، مصر، 1995م، ج1، ص 501- 504.

(2) –محمد عمارة، في فقه الحضارة الإسلامية، مكتبة الشروق الدولية، ط2، القاهرة، 2007م، ص144.

(3) –القرآن الكريم، سورة الروم، آية: 21.

(4) –القرآن الكريم، سورة الجمعة، آية: 10.

(5) –القرآن الكريم، سورة التوبة، آية:106.

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وإن الكون وما فيه مسخر للإنسان ومذلل له ليتمكن من أداء وظيفة الخلافة في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِه وَإِلَيْهِ النُّشُور﴾[2].

وبهذا، فالإسلام خَوَّل الناس جميعا حرية العيش في الأرض، واستخدام الوسائل التي تمكنهم من الاستفادة مما خلق اللّه لهم، بل وطلب الإسلام من الإنسان أن يستخدمها ليستفيد بنفسه ويفيد غيره – مسلما كان أو غير مسلم –، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تفتح أمام الإنسان مجال الانتفاع من خيرات الأرض، مثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَر وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسْرِفِينَ﴾[3]، ولذلك فإن الإعراض عن العمل والكسب، وتفسير الزهد بمعنى ترك السعي مطلقا فكرة دخيلة على الإسلام، تسربت إلى المجتمع الإسلامي من ديانات وفلسفات أخرى، وهي تتعارض مع مقاصد الشريعة الإسلامية؛ ذلك إن مفهوم العمل في الإسلام والسعي في طلب الرزق، والانتفاع بما خلق الله في الأرض غايته الامتثال لأحكام الشريعة الإسلامية التي تحث على العمل، ورضا الله بعمل الإنسان وبشكره على نعمه، ومراعاة حقوق الناس، والسعي في نفعهم ومعونتهم، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءاتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِين ﴾[4].

وقيمة الإنسان الكبرى في الإسلام أنه يتحمل نتيجة عمله، وهو المسئول عنه مسئولية دنيوية، وأخروية أمام الله سبحانه وتعالى، فيستشعر في ضميره رقابة الله جلت قدرته، ويخشى عقوبته وحسابه، وهذا الأمر ينطبق على العامة، وعلى من تصدى للشأن العام على حد سواء، وفي هذا الصدد يقول ابن تيمية: "فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد حال أكثر الناس لابتغاء الرئاسة أو المال بها"[5]، وهذه القيم وأمثالها جوهرها العقيدة، ولا يمكن أن تقاس بالمقاييس المادية.

ونشير أيضا إلى قضايا حياتية متعلقة بمتطلبات واحتياجات الإنسان اليومية، وسأضرب على ذلك مثلا في مسألة حيوية لا يمكن فهمها من غير إيمان مطلق بعقيدة راسخة، فمثلا من أهم الأعباء الحياتية اليومية للإنسان هو التكسب وتوفير أسباب العيش، والتي تعرف في الشريعة الإسلامية بمفاتيح الرزق؛ فمفاتيح الرزق وأسبابه وردت فيها آيات قرآنية وأحاديث نبوية دالة على مجالات متعددة للرزق، كلها تتعلق بالعقيدة؛ وأبرزها تحقق

[1] –القرآن الكريم، سورة الأنعام، آية:167

[2] –القرآن الكريم، سورة الملك، آية:15.

[3] –القرآن الكريم، سورة الأنعام، من الآية:142.

[4] –القرآن الكريم، سورة القصص، آية:77.

[5] –ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تح. علي بن محمد العمران، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، الرياض، ص235.

البركة في الأرزاق، ومن ذلك؛ تقوى الله عز وجل، والذي يعني أداء الأعمال بنية صادقة وإخلاص وأمانة، وكذلك التوكل على الله عز وجل، والذي يعني اعتماد الإنسان على الله وحده جلت قدرته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[1]، وكذلك الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل من الذنوب، قال تعالى:﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾[2]، وكذلك اجتناب المعاصي، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]، وكذلك الإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[4].

هذه المسائل وأمثالها لا يدركها الإنسان من غير عقيدة وإيمان، والإسلام بالنسبة للمسلم الذي يعي وظيفته في هذه الحياة هو منهج متكامل يشمل أمور الدين والدنيا والآخرة، وفي هذا السياق نشير إلى ما أورده الراغب الأصفهاني الذي يوضح الضوابط الذي تجعل الإنسان يعي وظيفته في الأرض، كونه خليفة الله بقوله: "وهذه الخلافة لا تتحقق إلا بتحري مكارم الشريعة، وتبدأ هذه المكارم بطهارة النفس بالتعلم للتوصل إلى الجود، والصبر ليدرك الشجاعة والحلم، والعدالة لتصحيح الأفعال، وبعد استكمال هذه الدرجات يصبح الإنسان هو المعني بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾، ويصلح لخلافة الله عز وجل"[5].

وهكذا، فإن مفهوم الحياة في الإسلام ليست الفترة القصيرة من عمر الإنسان، بل إنها تشمل الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، بينما يتضاءل تصور غير المسلمين في هذه الحياة، وينحصر في هذه الدنيا المحدودة الأجل، فيقولون كما قال الله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[6]، ويبرز التباين في إدراك الناس لوظيفتهم في الحياة، ويرجع ذلك إلى عقيدة الإيمان بيوم الحساب والجزاء، فما من رسول ولا نبي بعثه الله سبحانه وتعالى إلا ليحث الناس على عبادة الله الواحد الأحد، الذي لا شريك له، والتحذير من عذابه، والأمل في رحمته، وأن الحياة الدنيا هي دار فناء، وأن الآخرة هي دار القرار.

---

(1) –القرآن الكريم، سورة الطلاق، من الآية: 2.

(2) –القرآن الكريم، سورة نوح، آية: 10–12.

(3) –القرآن الكريم، سورة الروم، آية:40.

(4) –القرآن الكريم، سورة سبأ، من الآية:39.

(5) –الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، مراجعة وتقديم: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1973م، ص29.

(6) –القرآن الكريم، سورة الجاثية، من الآية: 23.

المطلب الثاني: نماذج عملية للدراسات الإسلامية في المؤسسات العلمية الغربية

المدنية الغربية المعاصرة تعد واقعا معاشا لا يمكن إنكاره في ميدان التطور المادي والتقدم العلمي، والارتفاع بمستوى العلوم والمعارف، وهي الظاهرة التي تحظى بقدر كبير من الإعجاب، ومع هذا التطور التقني والتقدم العلمي، فإن جوانب سلبية برزت للعيان؛ وذلك حينما وقعت هذه المدنية في انتكاسة أخلاقية تمثلت في عدم تحرر أغلب العلوم الإنسانية في الغرب من قبضة التحيز، والتي أضحت السمة الغالبة عليها.

ومع أن المدنية الغربية لم تبن معارفها من فراغ، وإنما استندت إلى حضارات سابقة عليها استفادت من علومها وتجاربها، ولكن مارست عليها أنواعا شتى من الإقصاء والتشويه، وذلك كما أسلفنا القول عند تناولنا للمذهب الفيلولوجي[1]، وهو ما يشكل مفارقة تستدعي الكثير من التأمل الجاد الحثيث، والبحث العميق عن بواعث الإرادة الخفية التي تدفع في هذا الاتجاه، وخصوصا لدى كثير من المستشرقين .

إن نقص الفهم والإدراك لعقائد الأديان الأخرى هو الذي يحمل الغربيين على التركيز على الدراسات الشكلية للأديان، وعدم التمكن من فهم العلاقة بين الواقع والعقيدة، وإن ذلك يقود إلى التقديم المختصر الذي تصبح فيه شعائر العبادات هي المعبِّر الرئيس عن الدين، وعلى سبيل المثال فإن معرفة العقيدة الإسلامية لدى غير المسلم لن تتعدى العلم بأن المسلمين يؤدون طقوسا دينية ملزمة، وبعبارةٍ أخرى فإن الفهم العام للدين ما هو إلا شعائر محددة مرتبطة بالانتماء إلى دين معين، ونتيجة لذلك فإن فهم العقيدة سيكون مشوشا أو ضبابياً في غالب الأحوال[2].

إن مجال الدراسات الدينية في المؤسسات العلمية الغربية مصدرها الرئيس الاستشراق علاوة على الفلسفة، ومن المعروف أن الفلسفة لا تنظر إلى الدين كعقيدة ونظام حياة، وإن فهم الإسلام في العقلية الغربية عموما فهما ضبابيا – كما أشرنا –، فعلى سبيل المثال النظرة العامة للإسلام تُستنبط وتُحمل على قضايا مختارة، مثل الإدعاء بالجمود العلمي عند المسلمين، أو الاتهام الجاهز للإسلام في كونه منبع للإرهاب، أو تصنيف أي ممارسات للمسلمين لا تتوافق مع الثقافة الغربية بأنها لا تتماشى مع القيم الإنسانية، فالخلفية الثقافية للعلماء الغربيين هي الفيصل في الحكم على الإسلام والمسلمين، ذلك أن طائفة من المستشرقين قد ركزت في دراساتها على "أفكار الشرق الإسلامية، وبدأ هؤلاء المستشرقون كتاباتهم عن الإسلام والعلوم الإسلامية، وعن السيرة النبوية، باستقصاء

[1] –ينظر: المطلب الأول من المبحث الأول من هذا البحث.

[2] –ينظر: عبدالقادر بخوش، المرجع السابق، ص77.

جوانب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم محاولين ما استطاعوا أن يشوهوا الصورة الرائعة التي رسمها القرآن للرسول صلى الله عليه وسلم والدين الحق الذي جاء يدعوا إليه"[1].

فالمدرسة الاستشراقية تشكل أهم مصادر التصور الغربي للقضايا الأكثر جدلا بالنسبة للإسلام والمسلمين؛ ومنها على سبيل المثال؛ المسائل المتعلقة بالمرأة المسلمة، فبتتبع التراث الاستشراقي عن المرأة المسلمة مثلا، نجد أن المستشرقين اعتادوا على استغلال حكايات وأساطير مثل حكاية (ألف ليلة وليلة)، لتشويه صورة المرأة المسلمة بتصورات توحي بأنها تجسد كيد النساء ومصائد الرجال، من خلال شخصيات مثل شخصية (شهر زاد) في الحكاية المعروفة، حيث يصفها المستشرقون بأنها كانت شخصية تجمع ما بين الطيبة والجاذبية والذكاء والورع، وفي المقابل أنها تصف في قصة بعد أخرى طرق النساء الماكرة في الخداع والدهاء، الأمر الذي يدعو إلى الذهول من خلال التناقض في الشخصية[2]، فهذه الحكايات والقصص التي يرويها المستشرقون، والتي يتم التركيز عليها كثيرا عند إعداد المناهج الدراسية في المؤسسات التعليمية الغربية، والتي كانت سائدة في زمن انحدار وتخلف لا ينكره أبناء الأمة الإسلامية، وهذه المحطات السلبية في تاريخ المسلمين يحاول من يضع المناهج الإسلامية من الغرب، أن يجعلها الواقع الحقيقي للإسلام، ويحكم على التاريخ الإسلامي بهذه الفترات التي أصاب فيها التخلف والتأخر الأمة الإسلامية.

لقد أخذت قضايا الإسلام في الفكر المعاصر حيزاً كبيراً في كتابات العلماء والمفكرين الغرب، والذين يمكن تصنيفهم إلى فريقين: فريق التزم الصدق في كتاباته رائده البحث عن الحقيقة، وفريق كان هدفه الطعن في الإسلام والتشكيك فيه، متَّخذا من أخطاء وسلوك بعض المسلمين دليلا على فشل الإسلام.

وفيما يتعلق بالمناهج الدراسية – وهو موضوع دراستنا – فإن المشكلة تبرز عندما تُكتبُ هذه المناهج لدراساتٍ دينية، ويستعملها خبراء ومختصين في مجال غير مجال الدراسات الدينية، مثل الدراسات الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية، والمشكلة تتفاقم أكثر في الكتابات التي يدونها علماء تمرسوا في الدراسات الدينية، ولكنهم يفتقدون فهم العقيدة الإسلامية، ويعتمدون في ذات الوقت على مصادر غير ذات قيمة علمية.

والسياق المتبع عادة في المؤسسات الأكاديمية الغربية عند إعداد أي منهج عن الإسلام[3]، أن يبدأ الكتاب بتقديم عرض مختصر عن تاريخ الإسلام، تُذكرُ بعده بعض أركان وشعائر الإسلام مع غياب أي نظرة عقدية،

---

[1] –عفاف صبره، المستشرقون ومشكلات الحضارة، القاهرة، 1980م، ص8.

[2] –ينظر: عبد العظيم إبراهيم الطعني، افتراءات المستشرقين على الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة،1993م، ص3.

[3] –من المراجع المتميزة في مناهج الإسلام في المؤسسات الأكاديمية الغربية؛ كتاب الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة (عرض ونقد)، للدكتور محمد وقيع الله أحمد، الأستاذ بمعهد العلوم العربية والإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو دراسة نظرية وعملية، ويقع في546 صفحة، وطبع في الرياض عام 2006م.

ويتبع ذلك وصفٌ مبسط لنشأة بعض المدارس والمذاهب الفقهية، ثم ينتقل الكتاب إلى الحركات الحديثة والقضايا المعاصرة في العالم الإسلامي، ويغيب في هذا العرض بطبيعة الحال البعد العقدي الذي يعطي المعنى الجوهري للدين، ويُبرز الجانب العملي له، وتتضاعف المشكلة وتزداد وضوحاً عندما يتم التعامل مع كتابٍ شامل يُغطّي عدداً من الأديان، إذ غالباً ما يعتمد الكاتب على فهمٍ مُتَوهّم لمصادر غير أصلية، أو غير ذات قيمة لعرضِ الدين الذي يُقدمهُ، ولذا أصبح تتبُّعُ الأخطاء والمزالق لغرض التنبيه والإشارة إليها مسألة غاية في الصعوبة، بينما عرض الديانة النصرانية في المؤسسات الأكاديمية في الغرب يتمُّ بشكل متوافقٍ مع رموزها وتصورها الديني، فالمطلع على مثل هذه الكتب يتخيل أن الإسلام، والأديان غير النصرانية ليس إلا مجموعةً من الطقوس التي يشوبها الغموض، فعند تناول الإسلام، وبعد تعريف عام للإسلام يتم التركيز على قضايا مختارة بعناية؛ مثل قضايا المرأة، ونظام الحكم، ومفهوم الجهاد[1]، وعلى سبيل المثال فإن كتاب (التاريخ) المقرر على طلبة الصف الثاني من مرحلة التعليم الثانوي في ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية يركز على أن انتشار الإسلام كان بحد السيف، وأن الفتوحات الإسلامية ما هي إلا احتلال عسكري، وفرض للإتاوات، ودفع للجزية، وكما هو متوقع لا تُشرح هذه المسائل شرحا وافيا، وتبقى تفسيراتها الموضوعية للمتلقي مُغيّبةً تماماً[2]، ولا يشار إلى الحقائق التاريخية التي أثبتت أن الفتح الإسلامي "هو كسر الحواجز المادية التي يحاول أن يقيمها الحكام والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة في الأقطار التي ينفذ إليها الإسلام رغبة في تحقيق اللقاء بين الإسلام، وبين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها"[3].

ومن المعضلات الرئيسة في الدراسات الإسلامية لدى مؤسسات التعليم ومراكز البحوث العلمية الغربية عموما ضم أنواع متباينة من الدراسات والاختصاصات تحت اسم (الدراسات الإسلامية)، ولا تنحصرُ إشكالية البرامج العلمية للدراسات الإسلامية في غياب التحديد الدقيق للمفاهيم والمضامين، وإنما في سطحية المادة العلمية، أو الانتقائية في اختيار موضوعات معينه التي تخدم مثل ذلك النمط من الدراسات، ومن الظواهر الملفتة للنظر أن أغلب الخبراء الغربيين بالإسلام لا يمتلكون إلا معرفةً ضئيلة بالعربية، أو ليس عندهم خبرة حقيقية بها، وإذا حدث أن كان عندهم بعض المعرفة بالعربية فليست هي المعرفة اللازمة للتمكن من استيعاب أمهات الكتب في التراث الإسلامي، وهذا ما يحدث في مجالات الدراسات الإسلامية؛ ليس في المستويات التمهيدية فحسب، بل على مستويات مراكز البحث والدراسات المتخصصة.

ومن المشكلات أيضا، والتي تنطبق على دراسة جميع الأديان غير النصرانية، أنهُ على الأغلب يقوم بتدريس الأديان، والعمل بمراكز البحوث العلمية مختصون في عقائد أخرى، وأحياناً مختصون في تخصصٍ مختلف كلياً، وفيما

[1] –ينظر: عبدالقادر بخوش، إشكاليات منهجية في الدراسات الغربية لعلم مقارنة الأديان، المرجع السابق، ص85.

[2] –ينظر: محمد وقيع الله أحمد، المرجع السابق، ص130– 133.

[3] –أنور الجندي، الإسلام وحركة التاريخ، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1968م، ص59.

يتعلق بالإسلام بالذات فإن من يتعاطى مع الإسلام بصفة محلل أو ناقد أو مستشار، فإنه في الغالب لا تكون لديه خبرة واسعة أو تخصص دقيق بمجالٍ ذو علاقة بهذا الحقل من الدراسة، والأدهى أنه من يباشر هذه المهمة، يصبح خبيرا في جميع قضايا الإسلام، وهذا أمر فيه كثير من التجني والإجحاف[1].

إن تصورات الغرب للإسلام تقوم على الانتقائية والمصالح المرجوة، ذلك أن هذه التصورات لا تستمد تفسيرها من السياق الصحيح للنصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية، أو أراء واجتهادات علماء الإسلام؛ فمثلا حث الإسلام على الحوار، الذي يعد المدخل لقبول الآخر، وهو مبدأ أساس من مبادئ الإسلام، لا يعطى حقه في مثل هذه المناهج، والذي يصل وفقا لهذا المبدأ الإسلامي الحضاري في التحاور مع الآخر للتجرد المطلق للحق، بأن يبدأ المحاور المسلم مع الطرف الآخر من قاعدة المساواة التامة بالرغم من علمه اليقيني أنه على حق، غير أن مسألة التعالي والتعصب عند الغرب من العوامل التي أسهمت في تكوين الصورة السلبية في العقلية الغربية، "يستولي على الغربيين شعور عميق بالتفوق العنصري على غيرهم من الأجناس البشرية...إن هذا الشعور بالتفوق العنصري يعد عنصراً هاماً من عناصر التكوين النفسي والفكري للغرب، وقد ترسخ هذا الشعور في المجتمع الأمريكي بشكل واضح في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي"[2]، وهذه الرؤية هي التي تمثل واقع الدراسات الإسلامية في المؤسسات العلمية الغربية، والذي حاولنا في هذا البحث المتواضع دراستها من خلال الربط بين رؤى المستشرقين التي تعد الرافد الأساس لدى علماء مقارنة الأديان في الغرب فيما يتصل بالإسلام، وانعكاس ذلك في تكوين الصورة السلبية للإسلام والمسلمين، وأثره في المتلقي الغربي.

[1] –ينظر: عبدالقادر بخوش، إشكاليات منهجية في الدراسات الغربية لعلم مقارنة الأديان، المرجع السابق، ص87.

[2] –عبد القادر طاش، صورة الإسلام في الإعلام الغربي، مكتبة الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1993م، ص114.

الخاتمة

في ختام هذا البحث المتواضع، أخلص إلى جملة من النتائج، منها:

أولا: ما يميز الإسلام عن سائر الأديان، أن الله سبحانه وتعالى حفظه بحفظه للقرآن الكريم من التغيير والتبديل؛ وإن دراسة الأديان سواء كانت سماوية ثم أصابها التحريف، أو وضعية، وإن كانت تسهم في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ كون دراسة الأديان بالنسبة للمسلم منهج دعوي، فإن دراسة الأديان تزيد المؤمن يقينا برسالة الإسلام الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان.

ثانيا: إن في تصورات عدد من المستشرقين لحقيقة الإسلام كثير من التجني والإجحاف، ذلك إن هذه التصورات لا تستمد تفسيرها من الفهم الحقيقي للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ولذا نجد عديد الأخطاء، سواء كانت بقصد أم بلا قصد، تكون نتيجتها تكوين رأيا عاما سلبيا عن الإسلام والمسلمين في العقلية الغربية.

ثالثا: يظهر في كثير ما تم كتابته عن الإسلام، تبعاً للرؤية الاستشراقية غبر المنصفة، أن معظم هذه الكتابات قائمة على الانتقائية، حيث يستند المستشرقون غير المنصفين على أراء ضعيفة، أو روايات غير صحيحة، أو مشكوك في صحتها في تكوين صورة الإسلام والمسلمين.

رابعا: إنّ الاستشراق متعدد الأهداف، يغلب عليه عدم الحياد والموضوعية في تناول الدراسات الإسلامية، حيث يبدأ الخلل في معظم أبحاث المستشرقين حول تشويه الحقائق وغياب الأمانة العلمية؛ وكون النفوذ السياسي العالمي اليوم يكمن في قبضة الغرب، وإن الاستشراق غير المنصف هو الذي يمثل الرافد الأساس للنفوذ السياسي الغربي، فإن كثيرا من وجهات نظر الغرب تجاه المجتمعات الإسلامية قائمة على أراء وأفكار المستشرقين غير المنصفين.

خامسا: إن المستشرقين ليسوا سواء، فمنهم المنصف، ومنهم غير ذلك، بل منهم من وصل إلى درجة عالية من المصداقية والشفافية في تناوله ودراسته للإسلام والمسلمين، وإن الالتفات لهذه الطائفة والاستفادة من أعمالها من الأهمية بمكان في مجالات متعددة، وبخاصة مجال مقارنة الأديان.

سادسا: لقد انتقلت دراسات الأديان في الغرب من الهيئات التقليدية والتي يطلق عليها "المؤسسات اللاهوتية" إلى الهيئات العلمية المعاصرة؛ مثل: الأكاديميات والجامعات والمعاهد، والتي تختلف طرق ومناهج البحث والدراسة فيها عن الطرق المتعارف عليها في الكنائس التي تركز على الإذعان والتسليم المطلق، وهذا ما جعل دراسات الأديان تقوم على كون الدين ظاهرةٍ اجتماعية وسياسية وثقافية يمكن فهمها وشرحها عبر العلوم الاجتماعية، وليس من خلال علم اللاهوت، وهذا ما يمكن للعلماء والباحثين المسلمين الاستفادة منه في حقل مقارنة الأديان.

سابعا: إن اعتماد المنهج الفيلولوجي، والذي يقوم على تأويلات وتفسيرات غير موضوعية، وينطلق من فكرة مسبقة جوهرها تفوق العقلية الغربية، وطمس أي إبداع أو تفوق في أي حضارة غير الحضارة الغربية يعد من أبرز الانتكاسات في الفكر الغربي.

ثامنا: إن جوهر المشكلة بالنسبة لمناهج الدراسات الإسلامية في الغرب تكمن في أن من يكتب هذه المناهج، ومن يستعملها يكون غالبا غير متخصص فيها، والمشكلة تتفاقم عندما تكتب من علماء تمرسوا في الدراسات الدينية، ولكنهم يفتقدون فهم العقيدة الإسلامية، ويعتمدون على مصادر غير ذات قيمة علمية.

تاسعا: إن التركيز على القضايا المعاصرة التي هي من طبيعة هذا العصر، هي التي تسهم في تنمية ملكة الباحثين المسلمين النقدية والتحليلية، لكي يصبحوا مدركين للقضايا الفكرية المستجدة، وقادرين على التعامل معها بعقلانية، ومحافظين في الوقت ذاته على أصول وثوابت وقيم الإسلام.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

المراجع

* القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.

1- إبراهيم صقر، الاستشراق والفلسفة الإسلامية بين التجديد والتبديد، المكتبة المصرية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2004م.

2- ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تح. علي بن محمد العمران، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، الرياض.

3- ابن هشام، السيرة النبوية، تح. مصطفى السقا وآخران، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، مصر، 1995م.

4- أحمد شلبي، مقارنة الأديان، (اليهودية)، مكتبة النهضة المصرية، ط8، القاهرة، 1988م.

5- إدوارد سعيد، الإستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء)، تر. كمال أبو سعيد، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت، 2001م.

6- أنور الجندي، الإسلام وحركة التاريخ، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1968م.

7- التهامي نقرة، القرآن والمستشرقون، بحث منشور في كتاب مناهج المستشرقين، المنظمة العربية للثقافة والفنون، الرياض، 1985م.

8- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، مراجعة وتقديم: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1973م.

9- المحجوب بن سعيد، الإسلام والإعلام فوبيا، دار الفكر، ط1، دمشق، 2010م.

10- حسن الباش، علم مقارنة الأديان: أصوله ومناهجه ومساهمة علماء المسلمين والغرب في تأصيله، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق،2011م.

11- ريتشارد نيكسون، الفرصة السانحة، تر. أحمد صدقي مراد، دار الهلال، القاهرة، 1993م.

12- روم لاندو، الإسلام والعرب، تر. منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1977م.

13- عبدالرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية،- دراسات لكبار المستشرقين -، القاهرة، 1965م.

14- عبد العظيم إبراهيم الطعني، افتراءات المستشرقين على الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، 1993م.

15- عبدالقادر بخوش، إشكاليات منهجية في الدراسات الغربية لعلم مقارنة الأديان، منشور في مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، الجزائر، عدد 7، رقم 1، وكذلك منشور على الرابط التالي: https://www.asip.cerist.dz/en/article/32290

16- عبد القادر طاش، صورة الإسلام في الإعلام الغربي، مكتبة الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

17- عفاف صبره، المستشرقون ومشكلات الحضارة، القاهرة، 1980م.

18- عمر لطفي العالم، المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، 1991م.

19- غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر. عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، ط3، القاهرة، 1956م.

20- محمد حسين الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1983م.

21- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية والعروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997م.

22- محمد عبد الله دراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم للنشر والتوزيع، ط5، القاهرة، 2006م.

23- محمد عبدالله الشرقاوي، مقارنة الأديان: بحوث ودراسات، دار الجيل، ط2، بيروت، 1990م.

24- محمد عزت الطهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان: حقائق ووثائق، دار القلم، دمشق، 1993م.

25- محمد عمارة، في فقه الحضارة الإسلامية، مكتبة الشروق الدولية، ط2، القاهرة، 2007م.

26- محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، القاهرة، 2005م.

27- محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1983م.

28- محمد وقيع الله أحمد، الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، الرياض، 2006م.

The Extent of Linkage of Orientalism to Religious Studies and its Impact on the Western Mentality Towards Islam

Mohamad Iwhida Ahmed

Abstract

This paper deals with studies related to the comparison of religions in the Orientalism field which has significantly developed since the nineteenth century A.D and coincided with dominating of the colonized countries by the colonial west. This required an in-depth understanding of the mentality of the peoples of these countries. Therefore, the field of studies of religions was used for these purposes. However, the methods which were used were not based on a scientific basis in the field of the study of religions. This has led to a reduction of religion in materialistic matters and political issues, distinguishing it from the basic aspect of faith. This is what has often been done in the studies of religions by western academic institutions, especially when it comes to Islam, in the service of the politicians and influencing groups.

The paper also focuses on the practical issues related to orientalism and religious studies, most notably those related to the Islamic curriculum in the educational institutions in the West, economics in Islam, the family system in Islam, as well as the extent of coexistence of Muslims and others. This paper objectively discusses such allegations based on fair and moderate opinions and ideas.